مجلة البحث العلمي الإسلامي

مجلة إسلامية علمية محكمة

تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية

ISSN: 2708-1796 (ردمد النسخة المطبوعة)

E-ISSN: 2708-180X (ردمد النسخة الإلكترونية)

السنة العشرون – العدد 66 – 28-2-2025م

Volume 20th - issue no. 66 - 28/2/2025

Pages: 341 - 359 الصفحات: 341 - 359

حاجةُ العلومِ الشّرعيّةِ إلى اللّغةِ العربيّةِ

(عِلم التّفسير نَموذَجًا)

The Necessity of Arabic Language for Islamic Sciences: (Tafsir as a Model)

د. محمد عبد الرحيم الترك

Dr. Mohamad AbdulRaheem Al Terk

أستاذ مشارك بجامعة الجنان – طرابلس – لبنان

Associate Professor at Jinan University, Tripoli, Lebanon

Email: mohamad.terik@jinan.edu.lb

اعتمادات

د. محمد عبد الرحيم الترك
أستاذ مشارك بجامعة الجنان – طرابلس – لبنان

Dr. Mohamad AbdulRaheem Al Terk
Associate Professor at Jinan University, Tripoli, Lebanon
Email: mohamad.terik@jinan.edu.lb

حاجةُ العلوم الشّرعيّة إلى اللّغة العربيّة (علمَ التّفسير نَموذَجًا)

The Necessity of Arabic Language for Islamic Sciences: (Tafsir as a Model)

ملخّص البحث:

إنّ دراسة الوشيجة بين اللّغة العربيّة وعلم التّفسير، أثمرت التعرّف إلى معاني القرآن الكريم ومحاولة إدراك الإعجاز فيه. وشاء الله تعالى أن تكون اللغة العربيّة باقية خالدة، إذ اختارَها لوحيه، فنزول القرآن بهذه اللّغة، بما حوت من خصائص ومقوّمات، ممّا يكتب لها البقاء والاستمرار، دعا إلى معرفتها، والبحث في أسرارها. وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، كان الأمر في بيان معاني القرآن إلى ما أثَرَ عنه، وإلى اجتهادات الصحابة ي الذين أدركوا التنزيل وأحاطوا بأسباب نزوله، ثمّ تنوّعت كتب التّفسير بعد ذلك فلا تكاد تُحصر، وذلك دليل على اهتمام الأمّة الإسلاميّة بكتابِ ربّها، فيكون اجتهاد كلّ مفسّر وِفقَ ما ملكَ من ناصية اللّغة، وزخرف الفصاحة والبيان.

كلمات مفتاحية:

القرآن الكريم – اللّغة العربيّة – علم التّفسير – علوم الشريعة.

Research Summary:

The study of the link between the Arabic language and the science of Tafsir (Quranic exegesis) has resulted in understanding the meanings of the Holy Quran and attempting to comprehend its miraculous nature. Allah has decreed that the Arabic language remains everlasting by choosing it for His revelation. The Quran was revealed in this language, which contains

unique characteristics and elements, ensuring its continuity and permanence, necessitating the knowledge of the language and the exploration of its secrets.

After the Prophet Muhammad (peace be upon him) passed away, the task of explaining the meanings of the Quran was based on what was reported from him and the interpretations of the Companions who witnessed the revelation and understood the reasons behind its descent. Subsequently, the books of Tafsir became numerous and diverse, indicating the Islamic nation's concern for the Book of their Lord. Each interpreter's effort is guided by their mastery of the language and their eloquence and articulation.

Keywords: Qur'an, Arabic Language, Tafsir, Islamic Sciences.

المقدّمة

الحمـد لله رب العالميـن، والصلاة والسلام على محمد سيـد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقـد تبين لعلماء الإسلام أنّ القـرآن الكريم أعطى العربيّة بُعدًا جديـدًا، وسما بها إلى لغة عليـا، يقصُـرُ عنها البيان، فلم يتركوا آية قرآنية إلّا استشهـدوا بها على كلّ قاعدّة لغويّة أو نحوية أو بلاغيـة. العربيّة لغةُ دينٍ قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، فصارتْ لسانَ الوحي الخاتم على رسول الله ﷺ، فقد أعجزَ القرآنُ العربَ أن يأتوا بمثله؛ فصار نزول القرآن الكريم بالعربيّة أهـمّ حدث في تاريـخ هذه اللّغة، قـال تعالـى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد: ٣٧). وقد ارتبطـت العربيّة بالإسلام ارتباطًا وثيقًا، فهـي المفتاح لفهم هذا الدّين، ومِن فضل القرآن عليها أن امتـدّ عمرُها به لغةً حيةً عالمية، فالاعتزاز بها، والثقة بمقدرتها من أهم عوامل نهوضها، فهي ركن هذا الدّين العظيم، وأساس بنيانه المتين.

والعربيّـة هـي الأداة المعبّرة عن ظاهـر اللّفظ من كلام اللّه تعالى وتفسيـر معاني الألفاظ التـي جـاءت في كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ، فالقرآن يفهـم ويبلّغ باللغة التي نزل بها، وكي يؤدي الرسالة الخالدة، فالأمة مطالبة بهذه المهمة العظيمة، على أن القرآن عالمي الدعوة عربي اللسـان والخطـاب، فمَن جهلَ العربيّة وعلومَها، لا يحلّ له تفسيـر كتاب الله تعالى، فقد رُوي «عن مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ) أنّه قال: لا أُوتى برَجُل يفسّر كتاب الله، غير عالم بلغة العرب إلّا جعلتُه نكالًا. وقال مجاهد (ت: ١٠٤هـ): لا يحلّ لأحدٍ يؤمنُ بالله واليوم الآخِر، أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالِمًا بلغات العرب»[١].

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدّين الزركشي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٨م، ج: ١، ص: ٣٦٨.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى أمور عدة منها:

رصد مظاهر حاجة علم تفسير القرآن الكريم إلى اللّغة العربيّة، من خلال تتبّع أقوال العلماء في الصلة الوثيقة بينهما.

تعزيز وتأكيد تلك العلاقة الوثيقة بين اللغة العربية، والعلوم الشرعية الإسلاميّة، وخاصة علم التفسير.

معرفة تأثير العربية بعلم التفسير إذ لا يمكن الاستغناء عن العربية وقواعدها، ونحوها، وصرفها، وبلاغتها في تفسير القرآن الكريم.

إذا كان القرآن عربي اللسان، أي جار في ألفاظه وأساليبه مجرى اللغة العربية، ففهم ألفاظه وتراكيبه وتفسيره، يستند إلى ألفاظ العربية، وذلك ليؤدي مهمته على الوجه الأكمل، في البيان والبلاغ.

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن أسباب اختياره في أمور أهمها:

شرف اللغة العربية وأهميتها، فهي لغة دين قائم على أصل خالد، هو القرآن الكريم، وأن الله تعالى اختار هذه اللغة العظيمة لتكون لسان وحيه الخاتم.

إنّ التعمق في علم التفسير وفهمه متوقف على التمكن من أسرار اللغة والغوص فيها، فهي مفتاح علم التفسير، فكأن هناك موثقاً وميثاقاً بين العربية وعلم التفسير.

الاهتمام الشديد والعناية الفائقة بالعربية، فهي لسان القرآن، وتكفل الله تعالى بحفظ كتابه، فهي محفوظة بحفظه، وخالدة بخلوده، فترسخت قواعد الاجتماع والذِمام بينهما.

قلة الأبحاث المستقلة والخاصة بإبراز الارتباط الوثيق بين العربية، وعلم التفسير.

إشكاليّة البحث:

تسعى الدراسة للإجابة عن:

التعريف بالجَذرَين: «عرب» و «فسر»، ولماذا أقبل العلماء قديمًا على الاهتمام بالعربيّة وتعلّمها؟ وما أثر العربيّة في الإرهاصات التي سبقت وضع علم التّفسير وقواعده؟ وأهمية تعلم العربية، وشروط المفسر للقرآن الكريم، والرابط الوثيق بين العربية وعلم التفسير؟ وتبيان علماء الإسلام أنّ التّفسير يتوقّف في معرفته على عدد من العلوم، زعيمُها علوم اللّغة العربيّة، فالتكامل بين علمَي اللّغة والتّفسير صنوانٌ لا انفصام بينهما، والواقع أنّ الإحاطة بأقوال جميع العلماء تتعذّر في هذه الدراسة، بخاصة حول مفهومها وحدودها وقيمتها. لذلك اقتصرت الدراسة على ذكر بعضِ الوقفات واللفتات التي أجادت وأفادت، بما فيها من روائع وحقائق ودلالات.

منهجيّة البحث:

تتمثـل منهجية الدراسة، باتخاذ خطـوات عملية، باتباع المنهج الاستقرائي، بتتبع أقوال العلمـاء المعتبـرة والمنثورة مـع التوثيق لها، ثم اتخـاذ المنهج التحليلي بموضوعيـة تامة، ليكون مشرق الدلالة، قطوفه دانية، للتوصل إلى الحقيقة العلمية المنشودة.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

المقدّمة: واشتملت على أهداف البحث، وأسباب اختياره، وإشكاليته، ومنهجيته.

المبحث الأوّل: أهمية العربيّة (ويشتمل على ثلاثة مطالب).

المطلب الأول: كلمة عرب.

المطلب الثاني: الاهتمام بالعربيّة.

المطلب الثالث: تعلم العربيّة.

المبحث الثاني: أهميّة علم التفسير (ويشتمل على ثلاثة مطالب).

المطلب الأول: كلمة فسر.

المطلب الثاني: شروط علم التفسير.

المطلب الثالث: الرباط الوثيق بين العربية وعلم التفسير.

الخاتمة.

المبحث الأوّل

أهميّة العربيّة

توطئة:

لقد اختص الله سبحانه وتعالى هذه الأمّة بفضله، حين أنزل هذا الكتاب ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشُّعَرَاء) فمنحها الخير الذي لا ينقطع، فبرز العرب على مسرح التاريخ بفضل القرآن، ثم أطلقوا حركة علمية أوقدوا من خلالها مصابيح الحضارة في أرجاء البلاد التي دخلها الإسلام، فالعربيّة كما قال الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ): «خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدّين، وسبب إصلاح المعاش، والمعاد»[١]. فما أصل هذه الكلمة؟

المطلب الأول: كلمة عرب:

تعدّدت آراء علماء اللّغة حول كلمة (عرب)، فقال الخليل الفراهيدي (ت: ١٧٥هـ): «وأعربَ الرجل، أفصح القول والكلام، وهو عربانّي اللسان، أي: فصيح»[٢]. وقال الجوهري (ت: ٣٩٣هـ): «العرب: جيلٌ من النّاس، والنسبة إليهم عربيّ بيّن العروبة وهم أهل الأمصار، والأعراب منهم: سكان البادية خاصة، والعرب العاربة هم الخُلّص منهم، وتعرّب أي: تشبّه بالعرب. والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بِخُلّص، وكذلك المتعرّبة، والعربيّة: هي هذه اللّغة»[٣].

وتوسّع ابنُ فارس (ت: ٣٩٥هـ) في دلالة الكلمة، فقال: «العين والراء والباء أصولٌ ثلاثة، أحدها: الإنابة والإفصاح، والآخر: النشاط وطيب النّفس، والثالث: فسادٌ في جسم أو عضو. فالأول قولهم: أعرب الرجل عن نفسه إذا بيّن وأوضح، قال رسول الله ﷺ: (الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهَا...)[٤]، والأصل الآخر: المرأة العروب: الضاحكة الطّيبة النّفس، وهنّ العُرُب[٥]، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ (الواقعة). والعَرْب: النشاط، والأصل الثالث: عربت معدته إذا فسدت، وروى الإمام مسلم عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي عَرِبَ بَطْنُهُ. فَقَالَ لَهُ: « اسْقِهِ عَسَلًا»[٦] وأما الأمّة التي تسمى العرب فليس ببعيد أن يكون

---

(١) فقه اللغة، أبو منصور الثعالبي، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، ص: ١.

(٢) كتاب العين، الخليل الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٨م، ج: ٢، ص: ١٢٨.

(٣) ينظر: الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة، إسماعيل الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ٣، ١٩٨٤م، مادة (عرب)، ج: ١، ص: ١٧٨ – ١٧٩.

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب استئمار البكر والثيب، برقم: (١٨٧٢)، ص٢٥٨٩، رجال إسناده ثقات.

(٥) أورد بعض المفسرين أن العُرب لها معان عدّة، منها: «كلامهنّ عربي»، ينظر: النكت والعيون، الماوردي (ت: ٤٥٠ه)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٤، ١٤٤١ه – ٢٠٢٠م، ج: ٥، ص: ٤٥٦. وينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت: ٧٧٤ه)، طبع بدار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي وشركاه، مصر، ج: ٤، ص: ٢٩٣.

(٦) رواه مسلم، كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل، برقم: (٥٧٧١). ص: ١٠٧١.

سميت عربًا من هذا القياس، لأنّ لسانها أعرب الألسُنة وبيانها أجود بيان»[1].

وقال الفيّومي (ت: ٧٧٠هـ): «العرب اسم مؤنث، ولهذا يوصف بالمؤنث، فيقال: (العرب العاربة) و (العرب العُرباء) وهم: خلّان العجم، ورجل (عربيّ) ثابت النسب في العرب، و (أعرب) إذا كان فصيحًا، وإن لم يكن من العرب. و(أعربت) الشيء و(عرّبته) بمعنى: التبيين والإيضاح، و(عرُب لسانه): إذا كان عربيّا فصيحًا، واللّغة العربيّة: ما نطق به العرب، والاسم (المعرَّب): الذي تلقته العرب من العجم»[2]؛ فهذه المعاني المأخوذة عن أهل اللّغة، لا تُخرج دلالة اللفظ عن استعماله بمعنى: الكشف والإبانة والإيضاح.

المطلب الثاني: الاهتمام بالعربيّة:

لا يقلُّ الاهتمام بالعربيّة عن الاهتمام بِالأحكام الشّرعيّة عند علماء الإسلام، وقد سارع سلفُ هذه الأمّة إلى وضعِ علوم العربيّة وتأصيلها لما وجدوه من الحاجة والمصلحة، بَدْءًا بالخلفاء الراشدين ومَن جاء بعدهم، «وهي بلا شك من جملة ما سنّوا من الخير الذي سبقوا إليه، ودليلُهم -هو بعينه- دليل جمع المصحف، وغير ذلك مما تقتضيه قاعدّة المصلحة المرسلة»[3].

وقد وردت أقوال كثيرة في فضل إعراب القرآن وأهمية العربيّة، فالعربيّة هي لغة رسول الله ﷺ، فعندما سئل الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) عن قوم يتعلمون العربيّة، قال: أحسَنوا، يتعلمون لغة نبيهم ﷺ»[4]. قال الشافعيّ (ت: ٢٠٤هـ) رحمه الله: «فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتّى يشهد به أن لا إله إلّا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأُمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك، وما ازداد من العلم باللّسان، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه كان خيرًا له»[5].

وقد كثُرَ الحثّ على تعليم اللّغة والاعتناء بها، والتحذير من اللّحن فيها، أخرج ابن الأنباري (ت ٣٢٧هـ) بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «لا يقرأ القرآن إلا عالم باللّغة»[6]. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (ت: ٣٢ه): «أعربوا القرآن فإنه عربيّ»[7].

ولا شكّ في أنّ العربيّة من أغنى اللّغات بيانًا، وأقواها برهانًا، كانت - ولا تزال - عاملًا مساعدًا لنشر الإسلام، والإقبال عليه، فتعلّمها واجب، قال ابن فارس: «إنّ العلم بلغة العرب واجب

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار الفكر، بيروت، لا تاريخ، مادة (عرب)، ج: ٤، ص: ٣٠٠.

(٢) المصباح المنير، أحمد الفيومي، المكتبة العلميّة، بيروت، لا تاريخ، ج: ٢، ص: ٣٠٠.

(٣) التّراتيب الإدارية، عبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لا تاريخ، ج: ٢، ص: ٢٧٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، محمد القُرطبيّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٦٥م، ج: ١، ص: ٢٣.

(٥) الرّسالة، الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت، ص: ٤٩.

(٦) المزهر في علوم اللّغة، جلال الدّين السّيوطي، دار إحياء الكتب العربيّة، لا تاريخ، ج: ٢، ص: ٣٠٢.

(٧) فضائل القرآن، القاسم بن سلام، دار الكتب العلميّة،١٩٩١م، بيروت، ص: ٢٠٨.

علـى كل متعلـق من العلم بالقـرآن والسُنة والفتيا بسبب، حتّى لا غناء بأحـد منهم عنه، وذلك أنَّ القـرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله ﷺ عربـيّ، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جلّ وعزّ، وما في سنة رسول الله ﷺ من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللّغة بُدًّا»[١]. وكتب العكبري (ت: ٦١٦هـ) في مقدمة كتابه: «فإن علم العربية من أجلّ العلوم فائدة، وأفضلها عائدة، وحكمه وافرة حجّة، ومعرفته تفضي إلى معرفة العلوم المهمة»[٢].

ونقـل عـن ابن تيمية رحمـه الله (ت٧٢٨هـ) قولـه: «إنَّ اللّغة العربيّة مـن الدّين، ومعرفتها فرضـ واجب، فإنَّ فهم الكتاب والسُنة فرض، ولا يفهم إلّا باللّغة العربيّة، وما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب»[٣].

والاهتمـام بالعربيّة مـن أوجب الواجبات، ومعرفتهـا ضرورية لا سيَّما لأهـل الشّريعة، جاء فـي مقدمة تاريخ ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ): «أركان علوم اللسـان العربيّ أربعة: وهي اللّغة والنّحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشّريعة، إذ مأخذ الأحكام الشّرعيّة كلّها من الكتاب والسُنـة، وهي بلغة العرب ونَقَلَتُها من الصحابـة والتابعين عرب وشرْحُ مُشكلاتها من لغاتهم، فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلّقة بهذا اللّسان لمن أراد علم الشّريعة»[٤]. وقال كذلك في سياق متّصل عـن النّحو: «وسمّاه أهله بعلم النّحو وصناعة العربيّة فأصبح فنًا محفوظًا وعلمًا مكتوبًا وسلّما إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»[٥]، وعدّ الإمام الغزاليّ (ت: ٥٠٥هـ) اللّغة العربيّة من المقدّمات التـي تجري مجرى الآلات للعلم بكتاب الله عز وجل وبسنـة نبيّه ﷺ، يقول: «وليست اللّغة والنّحو مـن العلوم الشّرعيّة في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشّرع، إذ جاءت هذه الشّريعة بلغة العرب، وكل شريعة لا تظهر إلّا بلغة»[٦].

فـلا بـدَّ من الاجتهاد في تعلّم العربيّـة «للتوصل إلى معرفة ما في القـرآن، وإذا كان القرآنُ نظامًـا لغويًـا، فقد فُرِضَ على المسلمين مقاربته مقاربة لغويّـة، ليتحقّق التواصل بين العبد وربّه، وهـذا التواصل لا يتحقّق من دون معرفـة المُراد الذي ضمّنه الله في كتابه العزيز، وقد أمرنا الله فـي كتابه بأن نتدبّره، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩). ويقول سبحانـه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ (محمد: ٤٢)، ويقول عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ (القمـر: ١٧) فمـن دون تدبّـرٍ وفهمٍ الخطـاب القرآني، لا

(١) الصاحبي في فقه اللّغة العربيّة ومسائلها، ابن فارس بن زكريا، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص: ٥٠.

(٢) اللباب في علل البناء والإعراب، عبد الله بن الحسين العكبري، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦ه – ١٩٩٥م، ج: ١، ص: ٣٩.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار المسلم، الرياض، ط: ٥، ١٩٩٤م، ص: ٢٤٠.

(٤) المقدمة، ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط: ٤، ص: ٥٤٥.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٥٥٦ – ٥٥٧.

(٦) إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزالي، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، لا تاريخ، ج: ١، ص: ١٧.

يمكـن الحديـث عن التواصل، وعليه؛ لا حاجـةَ للحديث عن التكليف والتكاليـف؛ «والتدبّر والفهم يتطلّبان تصوّرًا ومنهجًا وأدوات، فتفاعلُ المسلمين مع كتابِهم المقدّس في شِقّه اللغوي التواصلي، هـو الذي مكّنهم من إنجاز التّفسير اللغـوي، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا إنّ الدرس اللغوي العربيّ كلّه مَدينٌ للقرآن بالوجود والنشأة والتطوّر» [1].

المطلب الثالث: تعلّم العربيّة:

لقـد تمكّنت العربيّة على سائر اللغات، فتعلّمَها غيرُ العرب رغبةً فيها وحرصًا عليها، فكانوا لا يفصلـون بين العربيّة والدّين الإسلامي، فالصلـة روحيّة بينهما، والله أعلم بأسرار العربيّة، إذ انتخبها لشريعة الإسـلام، وانتخب الإسلامَ ليكون آخر الشرائع وأرقاها. وعليه؛ فقد عاشت اللّغة العربيّة حياة الأمة الإسلاميّة منذ أنْ تبلبلت بحروفِها ألسن العرب، فألفاظها ليست مجرّد قوالب جافة للأفكار، وإنّما هي الصور الناطقة لتلك الأفكار، ولقد أدرك الواعون من العلماء هذه الصلة الروحيّـة العميقـة بين اللّغة والناطِقين بهـا، فكأنّما نبّهوا عليه: أنّ لغة المرءِ عـادةً تؤثّرُ في عقلِه وخُلقه[2].

ولـو نظرنـا إلى العلوم الشّرعيّـة لوجدنا ذلك الربـاط الوثيق بينها وبيـن العربيّة، والعلماء يوصـون بتعلّم العربيّة لمن أراد أن يتعلّم العلوم الشّرعيّـة لإن إصلاح اللّسان يتخلّص به من شَين اللّحـن، ومـن الوقوع فـي الخطأ في تقرير الأحـكام الشّرعيّـة، فكل فن من الفنـون وكل علم من العلوم لا بدّ له من أن يعرف العربيّة ويتقنها. قال الجوهري (ت ٣٩٣هـ): «العربيّة التي شرَّف الله منزلتها، وجعل علم الدّين والدّنيا منوطًا بمعرفتها»[3].

واعتبر الزّمخشري (ت: ٥٣٨هـ) أنّ اللّغة هي الأساس الأول لبناء العلوم الإسلاميّة، «وذلك أنّهـم لا يجدون علمًا من العلوم الإسلاميّة فقهها وكلامهـا وعلمي تفسيرها وأخبارها إلّا وافتقاره إلـى العربيّـة بيّن لا يدفع، ومكشوف لا يتقنع، فهم ملتبسون بالعربيّـة أيةً سلكوا غير منفكين منها أينما وجّهوا كل عليها حيث سيّروا»[4].

وقـال ياقـوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ): «وحسبـك من شرف هذا العلم (علـم العربية) أن كل علم على الإطلاق مفتقر إلى معرفته، محتاج إلى استعماله في محاورته، وصاحبه فقير مفتقر إلى غيره، وغير محتاج إلى الاعتضاد والاعتماد على سواه»[5].

وقـال العكبري: «فـأوّل مبدوء به من ذلك تلقّـف ألفاظه عن حفّاظه، ثـمّ تلقي معانيه ممّن

---

(١) المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم، خديجة إيكر، سلسلة روافد: ٥٨، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت، ٢٠١٢م، ص: ١٥٤.

(٢) نحو وعي لغوي، مازن المبارك، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٩٧٩م، ص: ١٤٠ – ١٤١.

(٣) الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٣.

(٤) المفصّل في علم العربيّة، محمود الزمخشري، دراسة وتحقيق: فخر صالح قدارة، دار عمار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص: ٣٠.

(٥) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، مطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩٢٣، ط٢.ج: ١، ص: ٨.

يعانيــه، وأقوم طريــق يُسلَك في الوقوف على معناه، ويُتَوَصَّل به إلى تبيين أغراضه ومغزاه، معرفة إعرابــه واشتقــاق مقاصده من أنحاء خطابه»[١]، فالقرآن لا يُتصــوَّر إلّا بالعربيّة، ولا يُقرَأ إلّا بها، لذلك لا تُفصل اللّغة العربيّة عن علوم الإسلام، وفي هذا يستخلصُ محمود شلتوت (ت: ١٣٨٣هـ) أنّه «قد أجمع الأولون على أنّ معرفة ما يتوقف عليه فهم الكتاب والسُنة من خصائص اللّغة العربيّة شرط أساسي في جواز الاجتهاد ومعالجة النصوص الشّرعيّة والاقتراب منها»[٢]. فهذه النصوص لبعضِ أئمة اللّغة تقضي بوجوب تعلّم اللّغة، وفهم مداركها.

يؤخــذ من هذا ويفهم أنّ تعلــم العربيّة مقدّمة ضرورية وواجبة لفهم العلــوم الشّرعيّة، قال بعضــ المحققيــن: «معرفة مفــردات اللّغة نصف العلــم، لأنّ كل علم تتوقّــف استفادته عليها»[٣]، وعــدّه جــلال الدّين السّيوطي (ت: ٩١١هـ) من فروض الكفايــات، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسُنة»[٤]، ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبي ﷺ ومَن جاء بعدهم، يحثّون على تعلم العربيّة وحفظهــا وتدوينهــا، وقد هيأ الله سبحانه وتعالى لها رجالًا من العــرب وغيرهم وضعوا قواعدها، وأصّلوا أصولها، ودرسوها ثمّ نشروها، ذلك أنّ العلوم الشّرعيّة لا تفهم ولا تدرك إلَّا بها.

وممّــا يُنبّه لــه، أنّ العربيّة لا يمكن الاستغنــاء عنها وخاصّة علم النّحــو، إذ لا يوجد ما يحلّ مكانه أو يسدّ مسدّه، وهو كما وُصف «قانون العربيّة، وميزان تقويمها»[٥]، ووصف النحو أيضًا بأنه «دعامة العلوم العربيّة، وقانونها الأعلى؛ منه تستمد العون، وتستلهم القصد، وترجع إليه في جليل مسائلهــا، وفروع تشريعها، ولن تجد علماً منها يستقل بنفسه عن النحو، أو يستغنى عن معونته، أو يسير بغير نوره وهداه، وهذه العلوم النقلية -على عظيم شأنها- لا سبيل إلى استخلاص حقائقها، والنفــاذ إلــى أسرارها، بغير هذا العلم، فهــل ندرك كلام الله تعالى، ونفهــم دقائق التفسير.. إلا بإلهــام النحو وإرشاده؟»[٦]، و«تلــك السُنن التي خرجت بها العربيّة كأنّها معنًى إلهيٌ مُبتكَر، أُلقيَ فــي هذه الطبيعة ليتحــوّل بها وجه العالَم إلى جهة الله، فما زال ينكشــف من أطرافه شيئًا فشيئًا حتّــى ظهر سرُّ ابتداعه فــي القرآن الكريم»[٧]، والدراسات اللغويّة التي قام بها أبو الأسود الدؤلي (ت: ٦٩هــ) وغيره كانت خدمة للقرآن الكريم، وهي -فــي الوقتِ نفسه- ضوابطُ للتفسير، أو من العوامــل المساعــدّة له، وهذه الدراسات التي بدأت في عصــر الصحابة الكرام من إعراب وشكل وتنقيط كانت أُولى بوادر ضبط التّفسير، رغمَ أنّها أخذت شكلًا لغويًا، فلولا القرآن لم تقم.

---

(١) التّبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العُكبريّ، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط: ٢، ١٩٨٧م، ج١، ص: ١.

(٢) أسباب البدع ومضارها، محمود شلتوت، الدار المتحدة، دمشق، ٢٠٠٢م، ص: ٢٧.

(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط: ٢، ١٩٥٢م، ج: ١، ص: ٦.

(٤) المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، جلال الدّين السّيوطي، شرح: محمد أحمد جاد المولى وآخران، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط: ٣، ج: ٢، ص: ٣٠٢.

(٥) صبح الأعشى، أبو العبّاس القلقشندّي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م، ج: ١، ص: ١٦٧.

(٦) النّحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٧٥م، ج: ١، ص: ١.

(٧) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٧٤م، ج: ١، ص: ٢١٣.

ويقـوم تفسير القـرآن الكريم على عناية المفسّرين بمعاني الجمـل والتراكيب القرآنية، ولا يخفـى أنّ المعنـى هنا قد يتعدّد، وهـذا من سعة العربيّـة، لذلك لا يمكن أن يقـف تفسير القرآن الكريـم على زمن معيّن، فلم يقلْ أحدٌ مـن المفسّرين إنّه قد أتى على احتمالات التّفسير جميعها، وبيانُ ذلك أنّ التّفسير ينقسم إلى قسمَين: تفسير نقلي، وتفسير عقلي.

والتّفسير النقلي معناه إذا صحّ حديثٌ أو نصٌّ في تفسير آية، فالصحّة تُلزم انتفاء الخلاف ورفعـه، فهـذا النوع من التّفسير لم يختلـف النّاس فيه، أمّا التّفسير العقلي فهـو أن يُفرِغَ المُفسّرُ جُهـدَه وطاقتَـه في سبيل الوصول إلى معنى الآية، بعد أن يَجمع حولها من المرويات ما يُشعِرُه أنّها مُتّجهة إليه، متعلّقة به، فيقصد حينئذٍ إلى ما تبادر إلى ذهنه من معناها.

ولا يخفـى أنّ أفهـام النّاس تتفاوت بقدر تفاوت حظّهم من العربيّة وسعتها، وهذا هو ميدان التّنافس والاختلاف في تبيان القيم العليا والمعاني السامية لهذه الآيات الكريمة، وهذا لا يكون إلّا لِمن أوتي حَظًّا من اللّغة، وفهمًا في معرفة علوم القرآن، وأحوال نزولها وسياق الآيات المفسَّرة.

المبحث الثاني

أهميّة علم التّفسير

توطئة:

لـم يحظَ كتـاب بمثل ما حظي به القـرآن الكريم من الحفظ والعنايـة والرعاية، وقد عكف العلمـاء قديمًا وحديثًا على تفسير القـرآن العظيم، ليشرفوا بخدمتـه، واستنباط علومه وكنوزه، وإذا كان العلـم يشـرف بموضوعه، فهـو يشرف على قدر المعلوم، ويكفـي التفسير شرفًا أن يكون موضوعه كتاب الله تعالى، وهو -وحده- لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

المطلب الأوّل: كلمة فسر:

التّفسيـر فـي اللّغة هو الإيضـاح والبيان والكشـف والتفصيل، مأخوذٌ مـن الفَسْر، «والفسر هـو البيان. فسَرَ الشيءَ يفسِرُه ويفسُـرُه فَسْرًا. وفسّرَه: أبانه، والتّفسيـر مثله. قال ابن الأعرابي: التّفسير والتأويل والمعنى واحد»[1].

قـال الرّاغـب: «الفَسْرُ إظهـار المعنى المعقـول، والتّفسير قد يُقال فيمـا يختصُّ بمفردات الألفـاظ وغريبها، وفيما يختصّ بالتأويل، ولهذا يُقال تفسير الرؤيـا وتأويلها. قال تعالى: وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا»[2]. ولم ترد اللفظة في القرآن الكريم إلّا مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقـان: ٣٣)، ومعناهـا «وبما هـو أحسن بيانًا أو معنًى من

(١) لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، لا تاريخ، مادة (فسر)، ج: ٥، ص: ٥٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الرّاغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لا تاريخ، ص: ٣٨٠.

سؤالهم»[1].

وقد جاء في معنى التّفسير «منه المادي: كشف المغطى، ومنه المعنوي: كشف المراد؛ وكلّ شيء يُعرفُ به تفسير الشيء فهو تفسرتُه، وفسّره بيّنه على المبالغة، ويُقال في بيان الألفاظ وغيرها»[2]. هذا هو معنى التّفسير في اللّغة؛ فالكلمة تدلّ على التوضيح والبيان، ما يقتضي إعمال الفكر والعقل في إيضاح ما أُبهِم في نصّ من النصوص، بإرشاد المُتلقّي إلى ما عناه صاحبُ النصّ، فكأنّ النصّ يأخذ إضافة جديدة، ليأخذَ النصُّ معنًى جديدًا.

ولِكلمة التّفسير في اصطلاح أهل الفنّ تعريفات كثيرة إذا ما أُضيفَت إلى القرآن، قال أبو حيّان (ت: ٧٤٥هـ): «التّفسير هو علمٌ يبحثُ عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحملُ عليها حالة التركيب، وتتمّاتٌ لذلك»[3]. نجد هنا أنّ أبا حيّان ذكر خمسة أمور تُشكّلُ ماهيّة التّفسير، وهي التي تدورُ حولها موضوعات علم التّفسير، بينما عرّفه الزركشي (ت٧٩٤هـ.) بقوله: «علم يفهم به كتاب الله المنّزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[4]؛ ومن المتأخّرين، ذهب الزرقاني (ت: ١٣٦٧هـ.) إلى أنّ «التّفسير في الاصطلاح علمٌ يُبحث فيه عن القرآن من حيث دلالته على مراد الله، بقدْر الطاقة البشرية»[5]. وهناك تعريفات كثيرة أخرى، تتّفقُ في غالبها على أنّ التّفسير هو العلمُ فيه معنى كلام الله عزَّ وجلّ.

المطلب الثاني: شروط علم التّفسير:

برزت في علم التّفسير عدّة مصطلحات في القرون الأربعة الأولى، من أهمّها: علم التّفسير، علم معاني القرآن[6]، علم غريب القرآن[7]، علم مشكل القرآن[8]، علم إعراب القرآن[9]، علم أحكام القرآن[10]. ولا جرمَ أنّ النحاةَ تكلّموا في معاني الحروف، والأسماء والأفعال إنّما تُؤخذ من كتب اللّغة، «وقد حثّ الصحابة يعلى تعلّم إعراب القرآن، وطلب معاني العربيّة، قال عبد الله بن

(١) تفسير البيضاوي، عبد الله البيضاوي، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لا تاريخ، ج: ٤، ص: ١٢٤.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللّغة العربيّة – القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م، ج: ٢، ص: ٨٥٠.

(٣) تفسير البحر المحيط، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لا تاريخ، ج: ١، ص: ٢٣.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السّيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م، ج: ٢، ص: ١٧٤.

(٥) مناهل العرفان، محمد الزرقاني، مؤسسة التاريخ العربيّ – دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٩١م، ج: ٢، ص: ٩٤

(٦) منها: كتاب معاني القرآن للفرّاء (ت ٢٠٧هـ) وكتاب: معاني القرآن لأبي جعفر النحّاس (ت ٣٣٨ه).

(٧) منها: كتاب أبي فيد مؤرِّج السدوسي (ت ١٩٥هـ)، لكنّه لم يصل إلينا.

(٨) منها: كتاب مُشكل القرآن لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ).

(٩) منها: كتاب إعراب القرآن لابن خالويه (ت ٣٧٠هـ).

(١٠) منها: كتاب أحكام القرآن للجصّاص (ت ٣٧٠هـ).

مسعود رضي الله عنه: «جودوا القرآن، وزيّنوه بأحسن الأصوات، وأعربوه، فإنه عربيّ، والله يحب أن يعرب به»؛ وعن ابن عمر بقال: أعربوا القرآن»[١].

هـذا مـا التزم به الصحابـة رضي الله عنهم ومـن بعدهم، ويعدّ ابن عبّاس (ت: ٦٨هـ) - رضـي الله عنهما - من كبـار أئمة التفسير، وكما وصف: «بحر التّفسيـر، وحبر الأمّة»[٢]، ومرجع المفسريـن في العصور التالية، حتّـى قيل: «هو مَن أبدع الطريقة اللغويّة لتفسير القرآن»[٣]، فكان «أول المفسّرين، ورائد الدراسات اللغويّة في النصوص العربيّة»[٤].

و«يجـب على المفسر البداءة بالعلوم اللفظية: فيتكلم عليها أولًا من جهة المفردات، فيحقق اللغـات أولًا، ثـم التصريف، ثم الاشتقاق. ثم يتكلم فيها بحسب التركيب؛ فيبدأ بالإعراب، ثم بما يتعلـق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع، ثم تبيين المعنى المراد، ثم إيراد القصص والأخبار، قدر ما يعلم به سبب النزول، ويعتمد في ذلك على الأحاديث والآثار[٥].

ومـن غفـل عن هذه العلوم، فقد أخلّ فـي تفسيره، وقصّر فيه، وجـاء تفسيره دون المستوى المطلـوب، لنقصـ المعرفة بتلك العلوم، وعـدم الإحاطة بها، يقول العسكـري (ت: ٤٠٠هـ): «وقد علمنـا أن الإنسان إذا أغفل علـم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقـع علمه بإعجاز القرآن مـن جهـة، ما خصّه به مـن حسن التأليـف وبراعة التركيب، ومـا شحنه به من الإيجـاز البديع، والاختصار اللطيف، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها»[٦]، وهـو يرى أن أحـق العلوم بالتّعلم، وأولاهـا بالتحفّظ بعد المعرفة بالله جـلّ جلاله، علم البلاغة، ومعرفـة الفصاحة، فقال: «فينبغي مـن هذه الجهة أن يقدم اقتباس هـذا العلم على سائر العلوم بعـد توحيد الله تعالـى، ومعرفة عدلـه، والتصديق بوعده، ووعيـده»[٧]، وبما شابه هـذا وشاكله. قـال الزمخشـري في مقدمة تفسيره: «علـم التفسير لا يتم لتعاطيه، إلا لرجـل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان»[٨].

ويوضـح ذلك ابن عطيّة (ت: ٥٤١هـ) في تفسيره فقـال: «إعراب القرآن أصل في الشّريعة،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، في مقدمة تفسيره، ج:١، ص: ٢٣.

(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبري زاده، تحقيق: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتاب الحديثة، مصر، لا تاريخ، ج: ٢، ص: ١٣.

(٣) التّفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار القلم، بيروت، ج: ١، ص: ٧٩.

(٤) تاريخ التراث العربيّ، فؤاد سزكين، نقله إلى العربيّة: محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، ١٩٩١م، ج: ١، ص: ٦٣.

(٥) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٩١.

(٦) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ص: ٧.

(٧) المصدر نفسه، ص: ٨.

(٨) ينظر: الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٣٧٧هـ ـ١٩٧٧م، ج:١، ص: ١٥-١٦.

لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشّرع»[1]. وعلم التّفسير من أكثر العلوم الشّرعيّة حاجة إلى اللّغة العربيّة وعلومها، إذ ليس لغير العالم بحقائق اللّغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله عزَّ وجلّ، لذلك اشترط العلماء شروطًا لمفسّر القرآن ليكون تفسيره مقبولًا، فيرى الغزالي: «أن معرفة اللّغة والنّحو على وجه يتيسّر له فهم خطاب العرب وعادتهم في الاستعمال إلى حدٍّ يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامّه وخاصّه ومحكمه ومُتشابِهه ومُطلقه ومقيَّدِه ونصّه وفحواه ولحنه ومفهومه، والتّخفيف فيه أنّه لا يشترط أن يبلغ درجة الخليل والمبرد وأن يعرف جميع اللّغة ويتعمّق في النّحو بل القدر الذي يتعلّق بالكتاب ويستولي به على مواقع الخطاب ودرك حقائق المقاصد منه»[2]. ويفصّل السّيوطي ويعدّد العلوم التي يحتاج المفسّر إليها، وهي خمسة عشر علمًا: «اللّغة، النّحو، التصريف، الاشتقاق، المعاني والبيان والبديع وعلم القراءات، أصول الدّين، أصول الفقه، أسباب النزول، والقصص، النّاسخ والمنسوخ، الفقه، الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم وعلم الموهبة» [3] فنصف هذه العلوم تتعلّق بالعربيّة، ممّا يدل على أهميتها لمن أراد أن يتبحّر في تفسير كتاب الله تعالى، فلا غناء عن هذه العلوم، ليصح تفسيره ويقبل.

ومَن نظرَ في هذه العلوم -التي نقلها السّيوطي- تظهر له بعضُ الملاحظات، منها أنّ التبحّر فيها مُجتمعةً والإمامة فيها كلّها غير ممكن لأحد، وهو ما يشهد به تاريخ هذه العلوم، وبناءً عليه؛ فاشتراطها على هذا النّحو الواسع يكون نظريًا، أكثر منه عمليًا، إذا ما أريد التبحّر فيها وإتقانها إتقانًا مُعتبَرًا، فخيرُ أحوال العالِم أن يحصل له ذلك في بعضِها، ويكون له إلمامٌ معقولٌ ببعضِها الآخر، بل إنّ علوم اللّغة -السبعة الأولى- يشهد تاريخها أنّ العلماء السابقين كانوا مُوَزّعين على التخصّص فيها، وإنْ كانوا ذوي قدم راسخة في العلم، بأساليب العربِ في كلامِها وبآدابِها، «لأنّهم كانوا يدرسونَها مِن خلال ما يتخصّصون فيه من فروع العلم، وكذلك الحال في العصر الحديث»[4].

قال ابنُ جرير الطّبريّ (ت٣١٠هـ): «فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والأمثال والحكم والمواعظ، لا يجوز أن يقال اعتبر بها إلّا لمن كان بمعاني بيانه عالِمًا، وبكلام العرب عارفًا، وإلّا بمعنى الأمر - لمن كان بذلك منه جاهلًا - أن يعلم معاني كلام العرب، ثمّ يتدبّره بعد، ويتعظ بحِكمه وصنوف عِبَرِه»[5].

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطيّة، مؤسسة دار العلوم، الدّوحة، ١٩٧٧م، ج: ١، ص: ٢٥.

(٢) المستصفى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجنّدي، مصر، لا تاريخ، ص: ٤٨٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٨٠.

(٤) النّحو وكتب التّفسير، إبراهيم عبد الله رفيده، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط: ٣، ١٩٩٠م، ج: ١، ص: ٥٥٤ - ٥٥٥.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطّبريّ، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠١٢م، ج: ١، ص: ٤٥.

قـال شيـخ الإسلام عـن أهمية التّفسيـر وضرورته: «وحاجـة الأمّة ماسّةٌ إلـى فهم القرآن الـذي هو حبل الله المتيـن، والذكر الحكيم، والصـراط المستقيم»[1]. ولله درّ ابـن قيّم الجوزية (ت٧٥١هـ) إذ يقـول: «كلّمـا ازدادت البصائر فيه – أي القـرآن – تأمّلًا وتفكيـرًا زادَها هداية وتبصيرًا، وكلّما بَجّسَتْ معينَه فجّرَ لها ينابيع الحكمة تفجيرًا»[2].

المطلب الثالث: الرباط الوثيق بين العربيّة وعلم التّفسير:

يـرى علمـاء العربيّة أنّ في لغة العـرب أسرارًا غيبيـة، وأنّها لا يحيط بهـا إلّا نبي، قال ابن قتيبـة (ت: ٢٧٦هـ): «وإنّما يعرف فضل القرآن مـن كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانهـا فـي الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللّغات»[3]. ويقول في كيفية فهم عربيّة القرآن: «القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاقتصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماضِ بعضِ المعاني حتّى لا يظهر عليه إلّا اللّقِنُ (سريع الفهم)، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفي»[4].

قـال الأزهري (ت٣٧٠هـ): «لسان العـرب أوسع الألسُنة مذهبًا، وأكثرهـا ألفاظًا، وما نعلم أحـدًا يُحيـطُ بجميعهـا غير نبي»[5]. يدلّ هذا القـول على أنّ اللّغة من أهمّ مـا خلق الله تعالى في الإنسـان، فهـي من السعـة والغرابة ما لا يحيط بهـا ويُدركها إلّا أتمّ العقـول البشرية، وهي عقول الأنبياء، ولذلك كانت المعجزة الخالدة في اللّغة.

وقـال الراغب الأصفهاني: «إنّ أول ما يحتاج أن يشتغل بـه من علوم القرآن العلوم اللّفظية، ومن العلوم اللّفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائـل المعـاون لمن يريد أن يدرك معانيه، وليس ذلك نافعًـا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشّرع»[6]، فتحصيل العربيّة هو المظهر اللّغوي لمعجزة القرآن وتذوقه وتفسيره وفهمه، لذا يُجمع العلماء في آرائهم وأقوالهم وجوب معرفة العربيّة لفهم القرآن.

بنـاءً على ما سبـق، أشارَ أبو حامد الغزالي «إلى أنّ ظاهر التّفسير يجري مجرى تعليم اللّغة التـي لا بد منها للفهم»[7]، لذلـك يعرف قدر القرآن الكريم مَن أبحرَ في علوم العربيّة وحاول قدر الاستطاعـة أن يحيـط بها، وكانوا يعاتبـون ويعاقبون من لا يعرف العربيّة، فعـن أيوب قال: سألت الحسـن عن قولـه: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ (الأعراف: ١٨٩)، فقال:

(١) مقدمة في أصول التّفسير، ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، عُني بتحقيقها: جميل أفندي الشطي، مطبعة الترقي، دمشق، ص: ٤.
(٢) مدارج السالكين، ابن قيّم الجوزية، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط: ٧، ج: ١، ص: ٢٧.
(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرح السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ص: ١٢.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٨٦.
(٥) تهذيب اللّغة، أبو منصور الأزهري، تح: عبد السّلام هارون، الدّار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، ج: ١، ص: ٤.
(٦) المفردات في غريب القرآن، الرّاغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص: ٦.
(٧) إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزالي، ج١، ص: ٢٩٢.

لو كنت امرأً عربيًّا لعرفت ما هي؟ إنما هي: فاستمرّت به»[1]، أي قامت به وقعدت، وأتمت الحمل. فالاستعمال اللغوي مع المأثور جعل مرجحًا ومرجعًا موثوقًا عن المفسرين، فالطبري -مثلاً- في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ (هُود: ٤٠) يعرض لروايات عدة في معنى لفظ (التنور) فيذكر من قال: «إن التنور وجه الأرض، وأنه تنوير الصبح، وأنه نبع، وأنه أشرف الأرض، ثم يرجح من هذا كله، فيقول: وأولى هذه الأقوال، قول من قال: هو التنور الذي يخبز فيه، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب»[2].

وقال ابن قيم الجوزية: «وإنّما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف اللّغة وعلم العربيّة، وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها، ورسائلها وأراجيزها وأسجاعها»[3].

فهذه الأقوال تدل على الرباط الوثيق بين العربيّة وعلم التّفسير، مما يصعب الفصل بينهما، كيف لا، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف: ٢).

ولا جرمَ أنّ مَن لم يفهم العربيّة ويتقنها، لن يفهم معاني القرآن ومقاصدها. قال جمال الدّين القاسميّ (ت: ١٣٣٢هـ) في تفسيره: «سبيل التّفسير أن يرجع في تفسير ألفاظه إلى أهل اللّغة»[4]. ومن لم يتمكّنْ في علوم العربيّة، ويبحر فيها، ويستند إليها، ويتكئ عليها، في تفسيره أقرّ بذلك نادمًا، كما قال عطاء بن أبي رباح (ت١١٥هـ): «وددت أني أحسن العربيّة، قال: وهو يومئذ ابن تسعين سنة»[5].

والمراد من علم العربيّة «معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، سواءً حصلت تلك المعرفة بالسجيّة والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظَهرانيهم، أم حصلَت بالتلقّي والتعلّم، كالمعرفة الحاصلة للمُولّدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمُولّدين الذين درسوا علوم اللسان ودوّنوها، لأنّ القرآن كلامٌ عربيّ، فكانت قواعد العربيّة طريقًا لفهم معانيه، ومن دون ذلك يقع الغلط وسوء الفَهم، لِمَن ليس بعربيّ بالسليقة»[6].

الخاتمة:

اللّغة العربيّة لا تشبه غيرَها من اللغات، فهي نسيج وحدها، وهي اللّغة التي نزل بها الوحي الإلهي.. بدأت محاولات التّفسير منذ عهد النبيّ ﷺ، بيد أنّ الرسول ﷺ لم يفسّر القرآن كاملًا، وإلّا انتهت دواعي التدبّر والتفكّر، وكان للصحابة ي دور في تفسير معاني القرآن، فيما تقف

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطّبريّ، ج: ٦، ص: ١٧٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ج: ٧، ص: ٥٠- ٥٢.

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيّم الجوزية، مكتبة الهلال، بيروت، ص: ٢٢.

(٤) محاسن التأويل، محمد جمال الدّين القاسمي، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٥٧م، ج: ١، ص: ١٠.

(٥) سير أعلام النبلاء، شمس الدّين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط: ٢، ١٩٨٢م، ج: ٥، ص: ٨٧.

(٦) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج: ١، ص: ١٨.

عليــه أفهامهــم، وفيما تلقّوه من رسول الله ﷺ. ومع توسّع رقعــة البلاد، ودخول الأعاجم في دين الإســلام، وبُعــد العهد بالرسول ﷺ وصحابته ي، دعت الحاجة إلــى الضبط اللغوي لفهم القرآن الكريــم، فكان الاهتمام بالعربيّة وعلومها، إلى أن تعذّر الفصــلُ بين دراسة اللّغة العربيّة والقرآن الكريم.

بيد أنّ التّفسير لم يبق مقتصرًا على رواية الأحاديث وتداول معانيها، فصار التّفسير علمًا له أدوات وأصــول وأعلام، وصارت اللّغة العربيّة ركنًا من أركان هذا العلم، فاتصفت علاقة التّفسير بالعربيّة بالتطور والتوسّع، فإذا كان من معاني التّفسير البيان والإيضاح، حرَص العلماء على زيادة معانــي القــرآن بيانًا، فكثرت كتب التّفسير واتسعت، ذلك أنّ الثبــات في النصّ القرآني مع شمول معانيــه للأحداث المتجدّدة، دعــا إلى التدبر والاستنباط، قال تعالى: ﴿لَعَلِمَــهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُــمْ﴾ (النّســاء: ٨٣)؛ وكلّما ظنَّ ظــانٌّ أنّ علم التّفسير قد بلغ أشدّه واستــوى على سوقه، يأتي مــن علماء الأمــة الإسلاميّة مَن يتدبرون هذا الكتاب العظيم، جاهديــن في كشف أسراره وتبيانه وإعجازه، وما في لغته من المعاني والمقاصد، التي تُصلح وتَصلح لكلّ زمان ومكان.

المراجع والمصادر:

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السّيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.

إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، لا تاريخ.

الأدب المفــرد، البخاري، تخريجات وتعليقات: محمد ناصر الدّيــن الألباني، دار الصدّيق، ط: ٢، ٢٠٠٠م.

أسباب البدع ومضارها، محمود شلتوت، الدار المتحدة، دمشق، ٢٠٠٢م.

اقتضــاء الصراط المستقيــم، ابن تيمية، تحقيــق: ناصر عبد الكريم العقــل، دار المسلم، الرياض، ط: ٥، ١٩٩٤م.

البرهان في علوم القرآن، بدر الدّين الزركشي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٨م.

تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٧٤م.

تاريــخ التراث العربيّ، فؤاد سزكين، نقله إلى العربيّة: محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، ١٩٩١م.

تأويــل مشكل القــرآن، ابن قتيبة، شــرح السيد أحمد صقــر، دار التّــراث، القاهرة، ط: ٢، ١٣٩٣هـ ـ١٩٧٣م.

التّبيــان فــي إعراب القرآن، أبو البقــاء العكبري، تحقيق: علي محمــد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط: ٢، ١٩٨٧م.

التّراتيب الإداريّة، عبد الحيّ الكتّاني، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لا تاريخ.

تفسيـر البحر المحيط، أبو حيّان، تحقيق: عبد الرزاق المهـدي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لا تاريخ.

تفسير البيضاوي، عبد الله البيضاوي، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لا تاريخ.

تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

تفسيـر القـرآن العظيم، ابن كثير، طبع بـدار إحياء الكتب العربية، عيسـى البابي وشركاه، مصر.

التّفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار القلم، بيروت.

تهذيـب اللّغـة، أبـو منصور الأزهـري، تح: عبـد السّلام هارون، الـدار المصريـة للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطّبريّ، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠١٣م.

الجامع لأحكام القرآن، محمد القُرطبيّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٦٥م.

الرّسالة، الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت.

سيـر أعلام النبلاء، شمـس الدّين الذهبي، تحقيـق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسـة الرّسالة، بيروت، ط: ٢، ١٩٨٢م.

الصاحبـي في فقـه اللّغة العربيّة ومسائلها، ابن فارس بن زكريـا، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٧٧م.

صبح الأعشى، أبو العبّاس القلقشندي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م.

الصّحـاح تاج اللّغة وصحـاح العربيّة، إسماعيل الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ٣، ١٩٨٤م.

فضائل القرآن، القاسم بن سلام، دار الكتب العلميّة،١٩٩١م، بيروت.

فقه اللغة، أبو منصور الثعالبي، مكتبة دار الحياة، بيروت – لبنان.

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، مكتبة الهلال، بيروت.

القاموس المحيـط، الفيروز آبادي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفـى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط: ٢، ١٩٥٢م.

كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.

كتـاب العين، الخليل الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومـي وإبراهيم السامرائي، مؤسّسة

الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٨م.

الكشـاف، محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكـر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ١، ١٣٧٧ه ـ١٩٧٧م.

اللبـاب فـي علل البناء والإعراب، عبـد الله بن الحسين العكبـري، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦ه – ١٩٩٥م.

لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، لا تاريخ.

محاسن التأويل، محمد جمال الدّين القاسمي، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٥٧م.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطيّة، مؤسسة دار العلوم، الدوحة، ١٩٧٧م.

مـدارج السالكيـن، ابن قيّـم الجوزيّة، تـح: محمد المعتصم بـالله البغـدادي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط: ٧.

المدخـل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم، خديجة إيكـر، سلسلة روافد: ٥٨، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت، ٢٠١٢م.

المزهـر في علـوم اللّغة وأنواعها، جـلال الدّين السّيوطي، شرح: محمـد أحمد جاد المولى وآخران، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط: ٣.

المستصفى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجنّدي، مصر، لا تاريخ.

المصباح المنير، أحمد الفيومي، المكتبة العلميّة، بيروت، لا تاريخ.

معجـم ألفـاظ القرآن الكريـم، مجمع اللّغـة العربيّة – القاهـرة، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار الفكر، بيروت، لا تاريخ.

مفتـاح السعـادة ومصباح السيادة فـي موضوعات العلوم، طاش كبـرى زاده، تحقيق: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتاب الحديثة، مصر، لا تاريخ.

المفردات في غريب القرآن، الرّاغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لا تاريخ.

المفصّل في علم العربيّة، محمود الزمخشري، دراسة وتحقيق: فخر صالح قدارة، دار عمّار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

مقدمة في أصول التّفسير، ابن تيمية، عُني بتحقيقها: جميل أفندي الشطي، مطبعة الترقي، دمشق.

المقدمة، ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط: ٤.

مناهـل العرفان، محمـد الزرقاني، مؤسسـة التاريخ العربـيّ + دار إحياء التـراث العربيّ، ١٩٩١م.

النّحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط: ٥، ١٩٧٥م.

نحو وعي لغوي، مازن المبارك، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٩٧٩م.

النّحـو وكتب التّفسير، إبراهيم عبد الله رفيده، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط: ٣، ١٩٩٠م.

النّكت والعيون، أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط: ٤، ١٤٤١هـ – ٢٠٢٠م.